في الليالي البيضاء

للكاتب البولندي ستانسلاس بشيبشفسكي

****

ألا ألقي يدك في يدي !

ثم انظري الي !

بلوتُ محاسن هذه الارض وعجائبها طراً · فمنها اني شاهدت شمساً عظيمة في بطن الابدية تسكب دم النور الملتهب عَلَى الارض العارية · وذقت سعادة آدم في الفردوس · وانغمست في نور منبثق من تاج ملكي مشعشع من قطب الارض الى قطبها الآخر · وبنيت اهراماً عظيمة · واغدقت المياه بين رمال الصحراء فجرت هنالك اميالاً · وعاينت جمال الاوقيانوس الرهيب حين طغى عَلَى الارض وغمرها بطوفانه حتى اطراف السماء · وشاهدت الارض تنفجر وتندثر بعد ان احترق الكون بأسره ···

ولكن ما احقر هذه المشاهد العظيمة كلها بازاء طرفك الكئيب الذي رنا الى نفسي فنبه في سمائها ازهاراً عجيبة تمتص بشفاه اوراقها المفتوحة شراب الكآبة والتناسي ·

· · ·

الا فانظري اليّ كما نظرت في تلك الليلة الليلاء حين امتزج الارض والبحر فاصبحا ظلاماً كئيباً ·

كنا فيها ساكتين ، ولكن نفسينا تعانقتا وباتتا تحلمان · فحلمتا فيما حلمتا بالسكينة يُسمع من خلالها رنين اشعة النجوم ، فتخاله الاذن رنة أوتار هامدة ···

وببرقٍ لا شواطىء له ولا حد ، ينير السماء بلمعانه فلا تتصل بالارض ، فيغرق الطرف — طرف الروح المطلق في فضاء واسع لا حد له

وبابهة منسية — ابهة مدافن ازلية · يسطع فيها تراب رفات الملوك ···

وبحار هادئة هاجعة في ظلامٍ شفاف نقي ···

وباطيار صامتة ترفرف ابداً بلا صوت ودون انقطاع في بعدٍ لا منفذ له ولا نور فيه ···

وبمدائن مائتة لا يعكر اغساقها المطمئنة نور ولا ظلمة — بمدائن لا ظل لها ، تحيا بوميض نجوم غير منظورة ···

على هذه الحالة جلسنا في حيرة ساكنة نحلم احلاماً ليست من هذا العالم · في جبال أسمى من المهذيذ في الحلم بأبهة مائتة يجلببها نسيج عنكبوت فضي ، أو بتيجان اكلها الصدأ ، أو ببهاء تذكارات كساهـا القدم ثوباً من العفن ·

جلسنا ، وتاهت عيناك زمناً في حيرة ناعسة حتى اخترق حجاب نفسي

نور عينيك الناعستين المنتشيتين بالجمال ·

ألا فانعمي عليّ بنظرة اخرى مثل تلك النظرة

· · ·

وكلميني !

كم ليلة احييتها مصيخاً بسمعي الى ألحان اغنية كئيبة مبكية تقتطفها انغامها من اوتار القيثارة انامل جارية غريبة مجهولة كانت تطرق قصري سراً في الليالي المقمرة لتعزف عَلَى مضاطبه ألحانها المدلهمة كحفيف النخيل في الواحات المنفردة أو عويل اشجار السرو المنتصبة فوق قبور متداعية · وكم اصغيت وقلبي يدق دقات كأنهـا خفق اجنحة فولاذية الى ألحان حماسية تنشدها ابواق جيوشي وطبولي حين تزحف الى الحرب · وكم انصت ساعات اصغي الى لغط امواج البحر ، ونفسي ترتجف خوفاً وخضوعاً امام شمس الابدية ···

ولكن كل ما سمعته من الالحان والاصوات لحقير بازاء صوتك · فهو يحوك بسدى انوار الشمس الغاربة ابهة احلامي الغنية ، ويطرز امالي بوهج ازهار الخريف ·

ألا كلميني !

· · ·

لقد جبت كل البحار فلم اعثر عَلَى وطنك القمري الناصع ··· وقد

طوّفت في الافاق فلم استطع ان اقتنص نظرة من نظراتك . ولقد سمعت ضجيج الامواج وأصغيت الى كلام الناس ، ولكن رنة صوتك ما ارتعشت حتى الان على اوتار قلبي ...

. . .

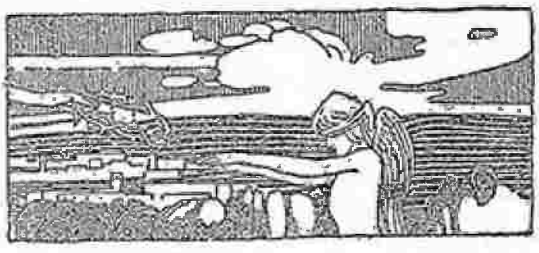

—(من الحديث النبوي)—

اللهم اني اعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع وعين لا تدمع ، ودعاء لا يُسمع ، ونفس لا تشبع .

. . .

اوصاني ربي بتسع اوصيكم بها — اوصاني بالاخلاص في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن اعفو عمن ظلمني واعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبراً .

. . .

نهيتكم عن قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال .

المسيح في ساحة القتال
للمصور داغير